الْوَطَنُ والشَّتَات فِي دِيوَان "أبْجديَّة الْمَنْفَى والْبُندقيَّة" لـ "إسْمَاعِيل إبْراهِيم شَتَّات"

Homeland and Dispersion in the Poetical works "The Alphabet of Exile and Venice" by Ismail Ibrahim Shatat

حنان بحشة*

جامعة محمّد الصدّيق بن يحي – جيجل (الجزائر)

bahchahanane@gmail.com

تاريخ الارسال:2022-01-30	تاريخ التقييم:2022-06-17	تاريخ القبول:2022-12-30

الملخص:

يتحدَّثُ هذَا المْقَال عنْ صُورةِ الْوَطنِ وشَتاتِ الذَّاتِ فِي دِيوَان "أبجديّة المنفَى والبندقيّةِ" للشّاعرِ الفلسطينيّ "إسْماعيل إبْراهيم شتَّات"، الّذي صوَّر الْوطنَ رافضًا ثائرًا في وجْه الظُّلمِ، انطلاقًا من المكانِ بعدّهِ الأصلَ رغْمَ تعدّدِه، وصولًا إلى الوطَنِ في صُورةِ الأُنثى المِعْطاءةِ، ثُمَّ الوَطَن الَّذِي تجاوزَ حُدودَ الجُغْرافيَا والْحِصَارِ، ليُجسّدَ في الوقْتِ نفْسِه شَتَاتهُ وضَيَاعهُ وخَوفهُ، يَأسِرُه الشَّوقُ والْحنينُ وهُو يبحثُ عن هذَا الْوطنِ ويُحاولُ دَائمًا إعَادةَ تشْكِيلهِ وخَلْقهِ منْ جَدِيدٍ، وقدْ عبّرَ عن الْوطنِ فلَسطين كَمَا يَراهُ وكَمَا يفتقِدهُ وكمَا يَحلمُ بهِ، وجعَلَهُ وَسيلةً لِجمعِ أَطرافِ الوطنِ الكَبيرِ.

كلمات مفتاحية: الوَطنُ؛ الشَّتَاتُ؛ الرَّفْضُ والثَّورَةُ؛ المنْفَى؛ الخَلْقُ الجَدِيدُ.

Abstract:

The present Article evokes the issue of the image of the Homeland and Self-dispersion in the poetical works "The Alphabet of Exile and Venice" written by the Palestinian poet "Ismail Ibrahim Shatat", who has portrayed the homeland, whilst refusing and rebelling in the face of injustice, starting from the place as the origin regardless of its plurality, reaching the homeland in the image of the generously giving female, and then the homeland going beyond the limits of geography and siege, so as to symbolize at the time itself, its dispersion, its loss and its fear, being captivated by longing and yearning, as it searches for this homeland along with trying always to attain the reshape thereof and its creation anew.

Besides, it expressed the homeland Palestine as it sees it, misses it, dreams of it, and makes it a means to bring together the parties of the great homeland.

Keywords : Homeland; Dispersion; Rejection and Revolution; Exile; New creation.

*المؤلف المراسل:

مقدمة:

لَطَالما رسَمَ الإبدَاعُ صورًا صَادِقةً عكَستْ هُمومَ الإنسَانِ وتطلّعَاتِهِ، وبَاحتْ بأسْرَارِهِ فَأسْمَعَتْ صَوتَهُ الخَفِيَّ، وخَلقتْ عَبْرَ المتَخيَّلِ حياةً أُخْرَى مُوازيَةً لِلْواقِعِ.

ولعلَّهَا صُورةُ الْوطَنِ أبْرز تلكَ الصُّورِ الَّتي أَخرجَتْهَا إبدَاعاتُ المعَاصِرينَ منَ الشُّعراءِ عَلى نحْوٍ مُغَايرٍ؛ الوطنُ: ذلكَ الوطنُ الكَائنُ، الوطنُ الّذي يَجبُ أنْ يكُونَ، الوطنُ المغتَصَبُ، السَّافرُ، الَّذِي تبدَّدَ فِي شَتَاتِ القَهْرِ والنَّفْي والظُّلْم والاسْتبدَادِ، ثمَّ تشكَّلَ منْ جَدِيدٍ بفِعْلِ أقلامٍ أعادتْ صيَاغَتهُ وجَمعَتْ أطْرافَهُ، كَقلمِ " **ابن الشّاطئ**" الّذِي اسْتطاعَ بموهبتِهِ الفارقةِ أنْ يُلمْلِمَ جِراحَ الفلسطينيّ الثّائرِ، ويُصيّرَ الشَّتاتَ رفْضًا، والمنْفَى خَلقًا جدِيدًا، وانتمَاءً من نوعٍ آخرَ لا حُدُودَ لَهُ.

إنّهُ الشَّاعرُ الرَّحالةُ "**إسْماعِيل إبراهِيم شتّات**" الّذِي قضَى حياتَهُ متنقّلًا بينَ البلدَان العربيَّة، حاملًا أوجَاعَهُ وأوجاعَ وطنِه، لَا يحصرُ المنفَى في مكانٍ محدَّدٍ، ولَا يَخْتزلُه في واقِعِه المْريرِ.

فَمِن " **الجسِير**" الفلسطينيَّةِ وَطنهُ الأوّل إلى "**جيجل** "الجَزائريَّة آخر المنَافي، مُرورًا بمدُنٍ عربيَّةٍ عدِيدةٍ، تركَ في كلّ واحدةٍ منهَا بصْمةً مَا، وواصَل مَسيرتَهُ الحَافلَة بأَحْلامِ الشّبَابِ وهُمومِ القضيَّةِ والقوميَّة وأوْجاعِ المنافِي.

إنّهُ المناضِلُ بأدَبِهِ، تخلّدهُ دَواوينُه ومَواقفُه، وتَبكيه الأمّةُ والقضيَّةُ والمنَافِي، وتفْتقِدُهُ العربيَّةُ الّتي أحيَاهَا في دواوينِه مُسْترسِلًا في اسْتلهَام التُّراثِ و تمْجِيد الذَّات العربيَّة، مُنبثقًا مِن عُمقِ التَّجربةِ و مُحافظًا علَى بنَاءِ القَصِيدَة الأَصِيلَةِ.

إنَّ الإشْكاليَّةَ الَّتي تَقُومُ عَليهَا هذهِ الدِّراسَة تكْمنُ في الإجابَة عن تسَاؤُلات أهمّهَا:

- كيفَ تبدَّتْ صُورةُ الوطَنِ في ديوانِ "أبجديَّة المنفَى والبندُقيّة"؟

- هل اسْتطاعَ "ابنُ الشَّاطئ" أنْ يُحافظَ على صُورةِ وطنِه المغْتَصَبِ؟
- كيفَ اسْتطاعَ "ابنُ الشَّاطئ" أنْ يُحوّلَ الشَّتاتَ الَّذِي يَعيشُه إبْداعًا؟
- كيفَ كانَ بَعثُه وخَلْقُه الْجدِيد لِوطنهِ مِنْ أوْطانِ المَنَافِي ؟

وكانَ هدَفُهَا تَسْليط الضَّوءِ على تَجْربةِ شَاعِرٍ فلسطينيٍّ عظِيمٍ، أثْرَى مكتبةَ الأدبِ العربيّ، لكنَّهُ لمْ ينَلْ حقّهُ من الدِّراسَات النَّقديةِ.

أمَّا المنهجيّةُ الّتي اعْتمدْناهَا للإحاطَةِ بجوَانبِ هذَا المَوْضُوعِ، فقَدْ صُدِّرتْ بمقدّمَةٍ عامَّةٍ مهَّدتْ للْعرْضِ، الَّذِي تضمَّنَ صُورَةَ الْوطَنِ في دِيوانِ "أبْجديَّة المنفَى والبُندُقيَّة"، من خِلَال عرضٍ لمفْهُوم الوَطنِ ثمَّ إحَاطةٍ بالوَطنِ كمَا رآهُ الشَّاعرُ، وبالشَّتَاتِ كيْفَ ارْتَسمَ شوْقًا وحنينًا ثمَّ اسْتَحالَ خَلْقًا جَديدًا، وكُلّ ذلكَ من خلالِ دِراسَةٍ تَطْبيقيَّةٍ، تَليهَا خَاتمةٌ لخَّصَت أهمَّ النِّقاط الَّتي توصَّلْنا إليهَا.

1. صُورَةُ الْوَطَنِ في دِيوَان "أبْجَديَّة المنْفَى والبُنْدقيَّة":

اتَّخذَ الوَطَنُ فِي هذَا الدِّيوَانِ أشْكَالًا عِدَّةً، جَعَلَهَا "ابنُ الشَّاطئ" تَتَوحَّدُ في صُورةٍ هيَ الأَصْلُ، فلسْطين الَّتي لمْ يَستَطِعْ طَمْسَهَا، المُحتَلُّ ولاَ نجَحَتْ في تَغْيِيبِهَا المَنَافِي.

1.1 الوَطنُ في اللُّغةِ والاصْطلَاحِ:

الوَطنُ في المقَاييس «محلُّ الإنسَانِ، وأوطانُ الغنَمِ: مرَابضُهَا، و أوطنتُ الأرضَ : اتَّخذتُها وطناً»[1]، إنّهُ «مكانُ الإنسَانِ ومحلُّهُ»[2]، وهُو في مَجالِه اللُّغويّ لا يُجاوزُ حُدودَ الارتبَاط بالمكانِ وقدَاستهِ وقِيمتِهِ المسْتمدَّةِ من قوَّة الْعلاقَة بينَ المحلّ والحالّ فيهِ، ولا يبتعِدُ عنْهُ في الاصْطلاحِ، إذْ يُطلقُهُ أهلُ العلْمِ والمرادُ بهِ : «مكانُ إقامةِ الإنسَانِ ومقرُّه الّذِي استقرَّ فيهِ سَواء وُلدَ به أمْ لمْ يولَد، والّذِي تأهَّلَ به، ونوَى التعيُّشَ والإقامَةَ الدّائمةَ بهِ، معَ عدَمِ قَصْدِهِ الارتحَالَ عنه»[3]، ويتَّسعُ مفْهومُه ليَشْملَ الاسْتِقْرار، معَ قصْد عدَم التِّرحَال عنْه، فالوطَنُ لا يشْترطُ علَى الفرْدِ أنْ يُولدَ فيهِ، بِقدرِ مَا يُتيحُ لهُ إمْكانَاتِ المكَانِ الَّتي تستمدُّ قيمتهَا منْ عُمقِ الْعَلاقةِ الكَائنَةِ بينَ هَذَا الفرْدِ ومحلّ تعيُّشهِ سَواء وُلد فيهِ، أَم اخْتارَهُ.

2.1 الوَطَنُ كمَا رآهُ "ابنُ الشَّاطِئ":

يَعْكسُ شِعرُ **"ابن الشَّاطئ"** حياتَه إنسانًا مُشرّدًا، فارًّا منَ الْقَهْر والظُّلْم والحِصَارِ، مُجْبرًا علَى ترْكِ فلسْطين/ الوَطَن، وطَن الولَادة والقلْبِ، ولاجئًا مشتَّتًا، احْتضَنَتْهُ شَواطئُ الشِّعْر/ الإبداعِ، كمَا احْتضنَتْهُ شَواطئُ البَحْر / المكَانِ، مُحمّلًا بهُمومِ الإنسَان والحيَاةِ والقضيَّةِ، ومُتَّصلًا بمحْنةِ أمَّتهِ، «ولَئن كانَ المواطِنُ العربيُّ قدْ عاشَ هذهِ المحنةَ ومَا تلاهَا مِن مِحَنٍ، مأْساةً مُتلاحقُة الفُصولِ ليْسَ فيهَا فَواصِل ولا انقِطَاعَات ...فإنَّ أتْعسَ المواطنينَ الْعرب هُم الشُّعراء، فهم أشْقَى النَّاس بِسببِ حَسَاسيَّتهم المفرطَة»[4]، وحدَّة تَفَاعُلِهم، فالشَّاعرُ على خلافِ غَيرِهِ يُجيدُ صُنعَ وَطنهِ الخَاصّ كمَا يَراهُ وكمَا يريدُه أنْ يكونَ، ويقدرُ أنْ يتحمَّلَ عَناءَ حَمْلهِ أينمَا حلَّ وارتحَلَ، ولعلّهَا صُورَةُ فلَسْطين الوَطَن الرَّحالَة في قُلوبِ شُعرائِه أصدَق صورةٍ تُثبتُ أنَّ «انقطاعَ العلاقَةِ الجَسديَّةِ الّتي ربطَت الفلسطينيَّ بأرضِه ووطنِه ،وتحوُّلِه إلى لاجئٍ يستظلُّ بخيمةٍ لا تقيهِ حرَّ الصّيفِ أو بردَ الشّتاءِ، وتَقْترنُ في وجدَانِهِ بالمنْفَى، قَد ولَّدَ لديهِ شُعورًا غائرًا بالظُّلمِ، وإحساسًا عنيفًا بالقَهْرِ، ولكِنَّ روحَ الوطنِ ظلّتْ تسْكنُ روحَهُ، وتَرتحِلُ معَهُ أنَّى ارتَحلَ، كمَا ظلَّ مُتماسكًا صَابرًا، ينْسجُ خيوطَ الأملِ ويحلمُ بِغدٍ أفضلَ »[5]، ولَا يُخالفُ **"ابنُ الشّاطئِ"** شُعراءَ فِلسْطين، فَيثبِت أنَّ روحَ الوطَنِ ظلَّتْ تَسْكُنهُ وتلازمُهُ وتقيّدهُ وتحرّرهُ في الآنِ نفْسِهِ .

لَقدْ وقفَ هذَا الشَّاعرُ علَى بقايَا الوَطنِ في رُوحهِ، وفَرشَ لَه مسَاحَات اتّسَعتْ من شِعرهِ اتّسَاعَ مَسيرَتِهِ الإبدَاعيَّةِ الْفارقةِ، وديوَانهُ **"أبجديَّةُ المنفَى والبنْدقيَّة"** جزءٌ من هذِهِ المسيرةِ، فيهِ منَ الرَّفضِ والإيمَانِ بالأرْضِ مَا يمنحُ الْوطَنَ صُورةً مُترفةً بالثَّورةِ والنِّضالِ والوفَاءِ والحيَاةِ.

هذَا الدِّيوانُ المتربّعُ علَى نحْوِ ثلاث مَائة قَصيدَة، لَا تَكادُ تُغيّبُ واحدةٌ منهَا الوطنَ كمَا يَحْملهُ **"ابنُ الشَّاطئ"** ويحنُّ إليْهِ ويأملُ في الْعَودةِ إليهِ.

أ. **الْوطَنُ الرَّافضُ/ الْوطَنُ المكانُ:**

انْطلاقًا منْ قَصيدتِهِ **"موشَّحَة قاصِرة ... على ظِلالِ الانتفاضَةِ ..."** المتصَدِّرة للدّيوانِ، الَّتي أماتَ فيهَا الشِّعْرَ والنَّثْرَ في لُغةِ الحِجارةِ، يتَراءَى لنَا وَطنُ الشَّاعرُ منتفضًا، ثائرًا، مبشِّرًا بِعُمرٍ جَديدٍ للأرضِ الصَّامدةِ، ضاجَّةً بالشُّهداءِ، مَاثلةً في المكَانِ **"بئْر السبع"** :

وتظَلُّ بِئْرُ السّبع مَا.....ثلَةً .. وتَرْتفِعُ السّتَارة.[6]

فالشّاعرُ في قصَائدِهِ لا يَسْتَغْنِي عنِ الأمْكِنَةِ الفلَسْطِينيَّة، بلْ يُثْبتُ من خِلَالهَا ارتبَاطَهُ بكلِّ شِبرٍ منْ أرضِهَا، فَنَراهُ مرَّةً في "غزَّة" ومرّةً في "عكّا" ومرّةً في "الجَليلِ" وُصُولًا إلى "القُدسِ" نُقْطة الالتقَاءِ والانتمَاءِ:

ومشَت غزّةُ تُعانقُ عكَّـــا والجَليلَ الأعْلَى أليفَ العقَابِ

واسْتَوَى كرمنَا الخَليليّ ظهْرًا وعَلَى القُدس بُرتقَال احْتسَابِي ..؟؟[7]

فـ **"شتّات"** كَشُعراء فلسْطِين الَّذِينَ شكَّلُوا «علاَمةً مُميّزةً في مَسِيرةِ الشِّعْرِ العَربيّ العَامّ، دونَ إغْفالٍ للْمكانِ الْفلسْطينيّ المفْقُودِ، وذلكَ بِحُكمِ تغرُّبهمْ وتشتُّتِهم فِي الكَثِير منَ البُلْدانِ العربيَّةِ والغَربيَّةِ، وبَحْثهم الدائبِ عَن الانتمَاءِ لمكَانٍ مَا علَّهم يَجدُونَ البَديلَ الضّائعَ في تلْكَ الأَمْكنةِ»[8]، ذلكَ المكانُ الفلسطينيُّ المرتبِطُ بالنِّضَالِ والثَّورةِ والرَّفْضِ والمقدَّسِ وكذلكَ الحصارِ والظُّلمِ والضَّياعِ، أَخرجهُ **"ابن الشَّاطئ"** في ديوانهِ **"أبجديَّة المنفى والبُندقيَّة"** ورَاحَ يَزْرعُه في قَصَائدِه ويتجوَّلُ فيهِ وكأَنَّهُ لمْ يَبرحْهُ يومًا إذ لا يُخيَّل للقَارئِ بُعد الشَّاعر عنْ تلكَ الأمكنَةِ.

وطنُ الشَّاعرِ الَّذِي أُبْعدَ عنهُ، ظلَّ يَحملهُ في وجدانهِ، وطنًا ثائرًا، رافضًا للعُدوانِ لا يَسْتسلِمُ أبدًا:

فإذا غزّةُ تَجْتاحُ الدّمـــى وإذَا الأقْصَى أعَاصِير انتخَاءِ

وعَلَى يَافَـا تَجَلَّـــتْ أَذْرعٌ تتحدَّى مُعطيَاتِ الْخُبثَـاءِ

وأريحَا ثَورَةٌ وهّاجَـــــةٌ تَتَسَامَى فِي عُيُون الشُّهَـدَاءِ

وإذَا الرَّملةُ بَارودُ ضُحًـى وجبَالُ النَّـارِ أجيَاد فـــداءِ[9]

فمدنُ الشَّاعرِ اجتمعتْ علَى كَلمةٍ واحدةٍ، هيَ كلمةُ النِّضَالِ والثَّورةِ والاستشْهَادِ فِي سَبيلِ اسْتعادةِ الْوطنِ/ المكانِ، الوَطنِ / الرُّوحِ، الوَطنِ / المقدَّسِ، لتشْتعلَ بذلكَ نارُ

الثَّورةِ في "أريحَا"، و"يافَا" بأذرعهَا تقاومُ وتتحدَّى الخبثَاءَ، إنّهَا فِلسْطين وطَن الشَّاعرِ تمدّدَ علَى مُدنهَا، وصدَحَ صوتُهُ بأَسْمائها، فكانَت قصائِدُه مُتْرفةً برمزيَّة الأَمْكنةِ وقدَاسةِ قيَمِهَا.

ونكادُ لا نجدُ قصيدةً منْ قصائِد هذَا الدِّيوانِ خاليَةً مِن ثَورةِ الوَطنِ ووطنِ الثَّورةِ، يَنْقل لنَا الشَّاعرُ من خِلَالهَا فَضَاءَه بينَ فواصِلِ المخيَّمَات، وقَصيدَة **"علَى بوَّابة ... مخيَّم جَنين ...؟ "** الَّتي يَقُول فيهَا:

لا فضَّ فُــوكَ .. أنَـا المخيَّم .. والقَنادِيل الظِّمَــاءُ

وعلَى جَبيني أذَّن الأقْصَـى .. ولاحَــتْ كَربَـــــلاءُ

وعَرفتُ منهَا ما الصُّمو..... دُ .. ومَا الْحقيقَةُ والرِّيَاءُ ..؟؟

أنا أدركُ الأبعا .....دَ .. أدركُ كيفَ تنتصرُ الدّمَاءُ ..؟؟ (10)

يصرخُ **"مخيَّم جنين"** بعدِّه مكانًا آخرَ اختزَلَ وطنَ الشَّاعرِ، وراحَ يسْتمدُّ قوّتَه من الأقْصَى وكَربلاءَ، ويجسّدُ معنى الصُّمودِ، في مَزْجٍ بَدِيعٍ بينَ عنَاصرِ المكَانِ المحَاصَر والمكَانِ الصَّامدِ، يَحتَويهمَا وطنٌ واسعٌ في وجْدانِ الشَّاعرِ لا يَمُوتُ.

تلْكَ الأمكنَةُ/ الوَطنُ / الثَّورةُ، هيَ نفسُهَا تلْكَ الأمكنَةُ / الشَّوقُ والحَنينُ:

وكُنْتُ أدْركُ ماذَا بعْدُ يَا سَفَرُ هُنَا الْجَليلُ .. أَرِيج الشَّوْقِ يَعْتمِرُ(11)

فالشَّاعرُ في بُعدهِ وسَفرهِ تَجْتاحُهُ أمواجُ الضَّياعِ، فَيُصَيّر حِبرهُ سَيلًا جَارفًا من الحَنين، يُترجِمهُ خطابًا صريحًا، يمرّرُ من خلالِه حبَّهُ وانتماءَهُ لوطنِه عَلى نحوِ قولِه في قصيدَةِ **" فنجَانُ ... قَهْوة ...؟ :**

لا تَظُنّي أنّني أنـ..سَى.. وهلْ أنْسَى الْجَليلَا..؟؟

وطَنِي أنْتَ.. فِيًّا للـ..حُبِّ يمْـتَدُّ نصُـولَا (12)

وفي قَصِيدتِه **"طَالعَةٌ ... منْ أصْغَرَيَّ...؟"** :

وعُدْتُ أنْهلُ مِنْ نبعِ الْحَنِينِ ضُحًى ولَا يُخَـادِعُنِـي صَمْـتٌ ولَا غَسَـــقُ

ألَسْتُ في مُقَل الأوزَاسِ سيّدتِـي مسْرَى الشُّمُوخِ ..وأنت النَّخلُ والْحدقُ..؟

وأنّنَا لُـغَةُ الإسْـراءِ تَرْسمهَـــــا اللهُ أكْبر في الأَقْصَـــــى وتَنْطلـــــق..؟؟ (13)

يربطُ "**ابنُ الشَّاطئ**" في هذهِ الأبيَات بينَ مَكَانينِ، والرّابطُ خيْط شعوريٌّ رفيعٌ محكمُ الفتْلِ، فالأوراسُ محَطُّ الثوّارِ ورمزُ النّضَالِ والصُّمودِ والشُّموخِ، يبثُّ شُحناتِه في رُوحِ الأقْصَى السّائرِ عَلى دربِ النّضَالِ، وهنَا يقبضُ الشَّاعرُ على المقدَّسِ ويُلبسه النصَّ وهو الّذي أُسْريَ بهِ من الأقْصَى إلى الأوراسِ، فأيقظَ الوطنَ وأشْعلَ فيهِ نارَ الانتفاضَةِ والرَّفْضِ.

أمّا مدينةُ المولدِ والقَلب "**الجسير**"/ المكانُ / الجُرحُ العميقُ / طفولةُ وذكْريَات "ابن الشَّاطئ" /أول حبٍّ/ أول وطنٍ / أول ثورةٍ / أوّل حرفٍ، فهي السّفرُ الطَّويلُ والحقيقَةُ والهَوى والحيَاة، ينشرهَا في قصيدتِه " **الجسير" على ... مخيّلةِ الميعادِ** ...؟ لا ينفصلُ عنهَا، ويلبسُهَا الصّمودَ والتحدّي و الأملَ في العودةِ، إنهَا كذلكَ تلوّح برمزيَةِ "**أمّ أوفى**" وتجسّدُ الشّوقَ والوطنَ / المكانَ الصّامدَ الثّائر:

فإذَا القُدْسُ حُـرَّة تتجلّـى وإذَا أنْتِ في الجسَيـر امتـدَادِي..؟؟

أمَّ أوْفَى أحنُّ دومًا .. فَعذْرًا إنْ تأخَّرْتُ .. أنْتِ كَالأَمْسِ زَادِي ..؟؟ (14)

ب. **الوَطَنُ /أمُّ أوفَى/ الأنْثَى:**

يَسْتعيرُ "**ابن الشَّاطئ**" من "زهير" "**أمَّ أوفى**"، المرأةَ /الرّمزَ، عنوان الوفاءِ « ليمنحهُ لأمَّة الحبِّ... أمّةِ الوفاءِ ... أمّةِ النّضَالِ والجهادِ ...الأمّة العربيَّة، ليجسّمَها في شخصِيَة امرأةٍ (...) نزّاعةٍ إلى الكمالِ، عملاقةٍ في شتَّى جوَانب شَخْصيتهَا »(15) ويخاطِبها:

" يا أمَّ أوْفَى" ..تلْكَ جَا..... رتنَا .. وذَاكَ أَخِي عمَارَة(16)

قد يبدو خطابه سطحيا، إلاّ أنّ شحنات "**أمّ أوفى**" الرّمزية تتدفّقُ مع القصيدة فتزيدها إيحاءً واكتمالاً، مصرّحا برمزيتها :

المرأة / الرّمـز الّتـي جسّدتهـا فـي أمّ أوفى .. قبلتـي ومنـاري(17)

إنّها الوطنُ، ويتحدَّث عنهَا غيابًا، وقدْ تراءَت لهُ ضعيفةً فقدَتْ هيبتَهَا، فحاولَ إحياءَهَا في آخر قصيدتِهِ "**الحزن يغمرني ... وأنت..؟**" بقوله:

ولَمْ تَعُدْ أمّ أوفَـى رغْـمَ هَيْبتِـهَـا شَمْسًـا مُمَيَّزَةً فِي الْبَـدوِ والْحَضْـرِ

عفَا عَلَيْهَا زَمَانُ الْوَصْلِ وانْدفَنَـتْ تحتَ الرّمَالِ .. وقَدْ مرَّتْ بـلَا أثَـرِ..؟؟

تصوَّرِي مَا يقُولُ الْعصْرُ واحْتَكِمي للسَّيْفِ يَا أمَّ أَوْفَى / الرَّمْزَ .. واسْتَـعرِي(18)

ويجْعلهَا قِبلتهُ المقدّسَة، مهد ثَورةِ أطفالِ الحجَارة، تقوّي إيمَانَه باللهِ والتّاريخ والأحرار، فيقول :

وعَلَى جوَانحِـهـا أحلِّـقُ مؤمنًـا باللَّـــهِ .. والتَّاريـــخِ .. والأَحْـــــرَارِ[19]

ويقولُ مخاطبًا "**أمّ أوفى**" /الوطنَ / الثّورةَ :

واجْعَلِي الرشَّاشَ صَـوتًا مُفْـردًا يكْتمُ الأنفَـــاسَ فِي أَحْلَـى غِـنَـــاءِ

أمَّ أوْفَى .. لاَ تكُونِـــي مُطْلقًـــا بغلَـــةَ الْعُـرسِ .. ولَا عِطْـرَ النِّسَـاءِ

واسْكنِي عُمْقِي .. وَجُودِي دائمًا فأنَـا أعْشَـــقُ أنهَـار الضِّـيَـــاءِ[20]

فأمّ أوفى الرّمزُ كَما صرّحَ الشّاعرُ في العديدِ من قَصَائده، أصْبحَت رمزًا خاصًّا به، تمنحُه الوفاءَ والحُبَّ ويُلبسُهَا الرفْض والنضَال، فيشْعلها ثورةً خلاّقةً حينًا، ويجعلهَا حينًا آخَر باعثًا لذكرَياتِه :

أمّ أوفَى طَـابَ اللِّقَاءُ..فَهَـــذِي ذِكْريَـــاتِـــي تَنُـــوءُ بالأسْفَـــارِ

لسْتُ أنْسَى بِالأَمسِ كيفَ انْطَردنَا منْ مطَـارٍ مسوَّق لمَطـارِ[21]

الوطنُ /أمّ أوفى ، يترتَّع على قصَائد ديوانِ "**أبجديَّة المنفى والبندقيّة**"، كمَا يترتّعُ على تجربةِ "**ابن الشّاطئ**" الشّعرية ويعمّقهَا، إذ في الْعديدِ من قصَائده إنْ لم نقلْ في جلّهَا، نجدُ "**أمَّ أوفى**" رمزا صريحًا مُباشرًا، بثقلهِ التُّراثي يُعْطي مَلْمَحا عميقًا للقصَائد، وقَدْ حمّلهُ الشَّاعر دلَالتهُ الخاصَّة ونَجح في ذلكَ، لأنّ الرَّمز كَي يسْتوي في النصّ الشّعري لابدَّ أن يحمِلَ « دلالة داخليةً حتميةً، يفرضهَا السّياق ولا تأتيه من أيّ اصْطلاحٍ خارجي» [22]، وقدْ بعثَ "**ابن الشَّاطئ**" "**أمّ أوفى**" في قصائدِه وطنًا وأنثَى، وجَعلها تستمدُّ دَلَالتها من داخِل الْقَصيدَة و من عُمق التّجربةِ الشّعريةِ.

ثمّ إنَّه، بقلَمِه العريضِ، راحَ يُجاري الوَطنَ الخَصب في قصيدتِه "**مواقفٌ ... مكتوبةٌ ... بالقلم العريضِ .. ؟؟** " في صُورةِ الأنثَى الأسِيرة ، يُسائلهَا :

هَلْ تُنْجِبينَ؟ مَتَى؟ وكيْفَ؟ وهَلْ تُرَى مَازلتِ قَادِرَةً عَلَى الإنْجَـــابِ ؟؟

هَلْ تُنْجِبينَ .. ؟ وكيفَ ..؟ أنْتِ أسيرةٌ للْعُقمِ رغْمَ فصَاحةِ الأسْبابِ [23]

تلكَ الأنثى يَراهَا يبَابًا، مُسْتسلمةً لعُقمِها رغْم وُجود أسْبابٍ عدَّة للخَصبِ والإنجَاب، فراحَ يُحاورهَا وطنًا ضعيفًا، فقَد زمامَ البَقَاءِ، وتوقَّفتْ فيه الحَياةُ بفعلِ الحِصَار ومَا حَملَ من بواعِثِ الموتِ، لكنَّهُ _ **ابن الشّاطئ** _ لا يَغيبُ خَارجَ حُدودِ القَلْبِ رغْم كثْرة الأسْئلةِ والحَواجِز بينهُ وبينَ وطَنِهِ، ليستمرَّ لا يُجيدُ الكفَّ عن حُبّهِ، مؤكّدًا تجذُّرَه وارتبَاطَه بهِ :

" ولَمْ أزَلْ .. متجَذِّرًا فِي صَدْرِكِ الوثَّابِ" [24]، لينتَهي عاشقًا في فوْضَى الأسْئلة ينْفي الفِراقَ ويثبتُ الوصالَ.

ج. الوَطنُ الْكَبير:

"ابن الشَّاطئ" المسْتَغرق في مَلَامح وطَنهِ فِلَسْطين، اتّسَعتْ عنْدَهُ صُورةُ الوَطنِ، وَزالتْ حُدودهُ الضيّقَة، إذْ نراهُ في قَصَائد منْ هذَا الدّيوان يوزّعُ أنَاه عَلى مسَاحَة الوطنِ الْكَبيرِ ، مُتنقّلًا بينَ مُدنهِ.

وهذهِ قصيدَتُه " **الأنَا العامَّةُ ... و... مُنتَهى الحبّ...** ؟؟؟ " تجسّدُ ثوْرةَ الوطَنِ الكَبيرِ انْطلاقًا منْ فلَسْطين وصولًا إلى جبالِ الأَوراسِ المطلَّةِ علَى سَاحَات المجْدِ، ويُحَاولُ الشَّاعرُ من خِلَالها بعْثَ ثَوْرةٍ عَارمَةٍ تُوحّدُ الوَطنَ الْكَبير:

وأَفَقْنَا علَى رصَاصِ النّشَـامَـى فِي جِبَالِ الأوراسِ رغْمَ الْعَوادِي[25]

وفي قَصِيدَته **"نبعُ الحَنين...؟(إلى رابطة إبداع)"**ينتَقلُ الشَّاعرُ بيْنَ ربُوعِ هَذا الوَطن، ويفصح عن انتِمائِه الَّذي لا تَحدُّه حُدودُ الزَّمانِ والمكَانِ :

وعلَى تخُومِ الشَّامِ أحفرُ غَايَتِي وأصبُّ فِي الأردُنِ حينَ أكبُرُ

فإذَا نخيـلُ الرّافـدينَ مسَبّـحٌ أبدًا .. ويخترقُ الحصَار ويثْـأرُ..؟؟

وإذا نُفَمبرُ في الطَّليعةِ دَائمًـــا وعلَى جديلَةِ صوتِهِ نتصَـــدَّرُ..؟ [26]

فالشَّامُ، الأردُن، نَخِيلُ الرَّافدين و(نوفمبر) الجَزائر، أمَاكن حلَّ بها **"ابن الشَّاطئ"** وحَمَلها في وجدانِه ووشَّحَ بها شِعْرَه، في مَزجٍ فنّيٍ قرّبَ من خلالِهِ أطْرَافَ هَذا الوَطنِ الكَبيرِ .

وفي قصَيدَتِه **"نافذةٌ مفتوحةٌ على الأوراسِ ...؟؟"** يُعلنهَا صراحَةً، إنَّهُ لا يعْترفُ بالحُدُودِ:

لا تُبْحِرِي .. سأظلُّ عَاذلتِـــي قلبًا علَى الأوراسِ ينفطِـــرُ
وتعـودُ أيّـامِـي مهـدّبَـــــةً في اللّاحُدودِ وينْطِـقُ الحجَـــرُ ..؟؟
وأظـلُّ مسْكُونًـا بغَاليتِـــي متوحّـدًا .. وأعِـي .. وأعتبِـــرُ ..؟
أنَا لسْتُ مقْصُورًا علَى بلَـدٍ فأنَـــا الـــدَّمُ الْعربـــيُّ لا أزرُ [27]

"ابنُ الشَّاطئ" منطلقٌ هنا رغمَ أوجَاعِهِ، فَقلْبُه عَلى الأوراسِ ينفطِرُ، وحَرفُه ولاّعتُهُ، هُو السَّابحُ في اللاّحُدودِ، تَسْكنهُ فلَسْطين ويُخبِرهَا بأنّهُ غير مقْصُورٍ عَلى بَلدٍ، بلْ إنَّهُ الدَّم العربيُّ، مُخرجًا بذلِكَ أصْدقَ صُورَةٍ لوَطنٍ كبيرٍ قَلْبُه فلسْطين وثَوْرتُه العِمْلَاقَة الْجَزائر.

ولمْ يخْرج بذلكَ عن حِزبِ المعَاصِرينَ مِن الشُّعَراء إذ «إنّ الشَّاعر العربيَّ الْحديثَ بغضِّ النَّظرِ عن توجُّهه وانتمَائه فِي الْكَثير منْ المواقِفِ الشِّعريَةِ، لمْ تَعُد تحدُّه الحُدُودُ الجُغرافيَّة الوهميَّة، الّتي وضَعهَا الاسْتِدْمار الغربيّ، فأضحت هموم كلّ الدوّل همومه ، فمصر مرتبطة ببغداد وبغداد مرتبطة بدمشق وهكذا دواليك»[28]، وأضْحى هَمُّ الأمَّة وقضَايَاهَا أكْبر من كلّ الخِلافَات وأبْعد مِن كلّ الحُدُودِ، وفي ديوَان **"أبجديَّة المنْفى والبندُقيَّة"** شكّلَ **"ابنُ الشَّاطئ"** منْ عُمْق التَّجربةِ وصِدقِها، وتفَاعُلِ الأحْداثِ، وطنًا كبيرًا لَا حُدودَ لَه .

2. الشَّتَات في ديوانِ "أبجديّة المنْفَى والْبنْدُقيَّة":

"ابنُ الشَّاطئ" الَّذِي جَاء مِن فلسطين وحطَّ رحَالَه الأخِيرة بالْجَزائرِ، مرورًا بعَديدِ البُلدانِ العربيّةِ، هُو أغزر شَاعِرٍ عربيٍّ في كلّ العُصورِ، حيثُ خلَّفَ مكتبةً شِعريَّةً تحْوي رُفُوفهَا تسعة وستين ديوانا، وإنْ غيّبَه النَّقدُ المعاصرُ ولمْ يمنحْهُ حقَّهُ من الدِّراسَة فقدْ أنْصَفه النَّقد الأكاديميُّ، إذْ كُتبت عنْه الْعَديد من الدِّراسَات والأبْحَاث والرَّسَائل الأكاديميَّة كمَا وردَ عن ابنِه.

ولْلحدِيثِ عن الشَّتاتِ الّذِي عاشَه **"شتّات"** في حياته يكْفي أنْ نَقرأَ عُنوان ديوانه **"أبجديَّة المنفَى والبندقيَّة"**، إذْ يخْتزِل هذَا الْعُنوان بإيحَائِه حياةَ المنْفَى عَلى طَريقةِ "

ابن الشَّاطئ"، الَّذي لَم يَسْتسْلم وقَدرَ أنْ يلمَّ شَتاتهُ وينطلقَ مُناضلًا ثوريًّا من أرضِ الثَّورةِ، ولَا شكَّ أنّ أناهُ الشّعريَّة قدْ وجدَت مَا يُلْهِمُها في الجَزائر، ولَمْ يَكفّ عنِ النِّضَال في منفَاه، وظلَّ مُشْهرًا قلَمه وَصَوتَهُ، مؤمنًا بأنَّ الإنسَانَ الفِلسْطيني أينمَا كانَ يتوجَّبُ عليهِ «الدِّفاع عَن هويَّته الوطنيَّة، وكيْنونتِه القَوميَّة والإنسَانيَّة، في مناصرةِ الثَّوراتِ، وتمْجيدِ الفدَائيّ، وتقْديسِ الشَّهيد، ممَّا جَعلهَا إرهاصًا من الشَّاعر بإبداعِ واقعٍ جديدٍ، يلمُّ الفلَسْطينيُّ فيهِ شَتاتَ نفسهِ، وأَشْلاءَ وطَنِه، لِيُنجزَ عودتَه إلى وطنِ الرُّوح» [29]، وقَدْ شَغلَ **"ابنَ الشَّاطئ"** همُّ الدِّفاعِ عن الوطنِ والهويّةِ، فخَلَق واقعًا جديدًا في القصيدَة والمنفَى، جَمعَ فيه شَتَاته وتمزّقَ روحهِ المتْعبةِ منَ السَّفرِ والبُعدِ عنْ وطنِ القلْبِ، وجَعلَ مُستحيلَ العوْدةِ أمَلًا يُقوّي عزيمَته عَلى الاسْتمْرارِ والنِّضَال.

1.2 الشَّوْقُ والْحَنين:

لقد اتّخَذَ **"ابنُ الشَّاطئ"** منَ الكتابَة سلاحًا كسرَ حواجز الصَّمتِ والنَّفي والسِّجنِ، وخَلقَ به عالما فسِيحًا أَمامه، بثَّ فيهِ ومِن خلالِه حَنِينَه لِوَطنه فلَسطين:

وتُعِيدُنِي الذِّكْرى علَى مُقَلِ الصِّبى متألِّقًــا لمّـا وقفْـتُ ببَابـــــي

أدلجتُ مُنْفعلًا .. وعشتُ مسَافـرًا قلقاً .. وفي جفْنِي عُمقِ مُصَابِي [30]

ذلكَ الشَّوقُ الَّذي يُقرّبه أَكثر فأكْثر منْ وطَنِه ، وكَأنَّه لمْ يفَارِقه، متَحدّيًا ضَيْق المنفَى:

أنَا لَمْ أكُنْ يومًا بَعيـــــدًا عنْكَ، كيْفَ..؟ وأنْـتَ دَارِي .؟

ومسَاحةُ الزَّمنِ الخَصيـــــب .. وكبريَــاء الجِلنَـــــار

يتفتَّـحُ الوِجْــدانُ فيـــــنَا دُونَ لأْيٍ أوْ حصَـــــار[31]

وفي قصِيدَتِه **"مُعَلَّقةُ ... الحَجر / الضَّوء ...؟؟"** يَشْتعلُ حنينُه وتتَوهَّج فيهِ الذِّكْرى :

لا تظنّي نسَيْتُ تلْكَ الزَّوايَـــــا عنْدَمَا غِبْتُ..أوْ نسـيْتُ اضْطِرابي [32]

وفي قصِيدَته **"مازلتُ ... أنتظرُ ... الجَوابَ ...؟"** يصَوّرُ قَهْرهُ وحِصَارهُ مكْسُورًا تائهًا بين البُعدِ والاغْتِرابِ:

وأكبُّ مقْهورًا علَى وجْهِي .. يُحَاصرُني اضْطِرابِي
وأتابعُ الأخبارَ منْ.. ـهُـوكًـا .. وأعْتَصِر انشِعَابِـي
فلَقدْ تكسَّر دَاخلِي مَا بيْنَ بُعدكَ واغْترابـــــي ..؟ (33)

وفي قصيدته **"حنّت الدّار....؟"** يخاطب أنثاه، أمّ أوفى، الوطن، في ثلاثية مزج فيها بين الحنين والذّكرى والحبّ :

تتزاحمُ الأشْـوَاقُ فاتحـــــةً جُرحِي .. وتنطقُ فيكَ أحجَارِ
ويجسِّدُ الأطفَالُ معجـــزةً في واقِعِي .. وتعمّمُ الـنَّـــارُ
أفهِمتِ مَا أعنيه محْتسبًـا ..؟ يـــا أمَّ أوفَى .. حنّـتِ الـــدَّارُ..؟ (34)

أمّا قَصيدتُه **"الحُزنُ يغْمُرني ... وأنتَ ..؟؟"** فَقدْ ابتَدَأهَا مُتسَائِلًا:

ما ذنبُكِ اليَومَ أنْ تَبْقَيْ عَلى سفرٍ وأنْ تكوني صَدَى التّهْميشِ والذِّكرِ..؟؟ (35)

وعمّقَ فيها شتَاتَه، وأَحْكَم الرّبطَ بينَ أبيَاتِها بِخيْطٍ شُعُوريٍّ رفيعٍ، هو خيْطُ الْحزْن

والألَم، مسْتعْملًا جُملةً من الأَلْفاظِ تُترْجمُ ضَيَاعَهُ وحدَّة حُزْنه نحو : التَّهْميش، تُعذّبني، جُرحي، عتابًا، الأوجَاع، دَمي المحرُوق، وهذِه القَصيدَة تجسِّد حَالة الشَّاعرِ في اغْترابِه لا تفَارقُه "أمّ أوفى" الرّمز كمَا لا تُفارقُه صُورَة فِلسطين الْباكيَّة :

تبْكي شواطئُ حيفَـا يا معذّبَتِي والقُدْسُ تسْألُ أهْلَ الكَهْفِ عَنْ خبرِ (36)

فـ **"شتَّات"** الشّاعرُ في الشَّتاتِ لَم تغِبْ عنْه فِلسطين، واقعًا وحلمًا، بَل لَازمتْ حَرْفَه وتدفَّقتْ سيْلًا جَارفًا منَ الْحَنينِ غَمرَ كلَّ المنَافي واسْتَحالَ تفَاؤلًا :

وأنَا هُنَـا أحْيَـا هنَـــاكَ ولَا أدْرِي متَـى يَسْتيقـظُ الشَّـــــرَرُ(37)

وفي قصِيدتِه **"سَمَكُ القِرشِ ... و ..... شِفاهُ الغبَار...؟"** تَسْكنهُ الآهُ والأَسْئلةُ :

آهٍ .. هلْ تُدْركينَ مَا قِيمَةُ الحبِّ..؟ ومَعْنَى أنْ تَسْكنِي أشْعَارِي..؟
آهٍ .. لَوْ تُدْركينَ لانبَعثَ الضَّـو .....ءُ أصيلًا عـلَى جَبينِ ديَـارِي..؟؟
أمَّ أوفَى ..؟؟ أأنتِ حقّـا سيُـوفٌ جرَّدتْهَـا أزاهِـرُ التّذْكَـــــارِ..؟؟ (38)

وتُقيّدُه الذّكريَات و حيرةُ اللّيلِ والتنَقُّلِ بيْن المطَارات بحثًا عن وطنٍ يكسِر فيهِ الحِصَار:

تتنزَّى فِي حلكَـــةِ اللَّيـــلِ حيْرى ثُمَّ تُمسِي عَلى رُمُوشِ اسْتعَاري

لسْتُ أنسَى بالأمْسِ كيْفَ انْطَردنَا منْ مَطَـارٍ مســـــوّق لمطَـارِ

وكأنَّ الشُّعوبَ لا تملكُ الحـــقَّ.. ولَا تَسْتطيعُ كَسْـــرَ الحِصَـــار..؟ (39)

وإنْ كَانتْ الغُربَةُ تَجربةً عامّةً، عَاشَها كُلّ فلسْطينيّ أُبْعِد عَن وَطنِه عُنوةً وأُجْبرَ على العيش في المخيمات والملاجئ وبلدان المنافي ، فقد تلوّنت عند الشّعراء بالذاتية والتجربة الخاصّة ،على نحو " **ابن الشاطئ**" في قصيدته **"أريج ... الشّوق ...؟؟"** :

مُسَافرٌ أنتَ فِي جبينِي يَا سفَـــرُ وخَلْفَ ظعـنكَ أمواجٌ ومدّكَـــرُ

إنّي أُسَافِرُ محمولًا علَى وَجَعِـــي والْحُزنُ يغرفُ من بحْرِي .. ويَهْمِرُ(40)

فالشَّاعرُ يَنْطلقُ من تجربتِهِ الخَاصَّةِ، وإنْ كانَ هذَا الشَّتاتُ الَّذي يَعيشُه هو نَفْسُه الشَّتَات الَّذِي يَحْياه كلُّ فلَسْطيني مُضْطهدٍ مُغرّبٍ عَن وطنِه، فَإنَّ" **ابنَ الشَّاطئ**" يجْعَله شَتَاتَهُ الخاصّ، يعبّرُ عنْهُ بطَريقَتِه و يُعرّي فيهِ أوجَاعَه وأحْزَانه، ويُعِيدُ تَشْكِيلَ ذَاته فِي أسْفَاره لا يحْمل غيرَ "**الجَليلِ**" مكانًا ووطنًا ومنْتَهى شَوقٍ :

وكنْتُ أدْركُ ماذَا بعدُ يَا سَفَـــرُ هُنَا الجَلِيلُ .. أريجُ الشَّوقِ يعتَمرُ ..(41)

ويفتتح قصيدته **"وجع ... مخزون .. !؟"** مهموما محترقا:

أعِيشُ همّي بعيدًا عنك .. محْترقًا ومن يسافر قسرا لا يرى أفقـــا

على حرَائقِ أيَّامِي وضَعْتُ يَـــدِي فهَالنِي الشَّوْقُ واسْتَوعَبتُ ما علُقا(42)

ويَستمرُّ في احْتراقِه شَوقًا وذكْرى، لا يَكَادُ يخلو بيت من أبياته من شحنات الشّوق والحنين، وقد أضناه وجع الفراق، فراح يخاطب أنثاه/ فلسطين، يُحَاورهَا، يَجْعلُها مِحورَ قَصِيدتهِ ، ويرْسمهَا بتَفَاصيلِها الوَاقعيَّة والمتخيَّلةِ، متخذًا منَ الزَّمنِ المضَارعِ قناةً استمرَّ منْ خلَالهَا تدفُّقُ شَوقِهِ.

إنَّه "**ابن الشَّاطئ**" يسْألُ البَحرَ عَن بعضِ التَّفَاصيلِ، ويَسْتَدعِي "**أمّ أوفى**"، ويثْبتُ ارتباطَهُ بالأرضِ غير مُبالٍ بالحُدودِ والحَواجزِ والمسَافاتِ:

أسَائلُ البَحْر .. هلْ في البحْر سَاريةٌ تدقُّ صَدْرَ الضُّحى خلْفَ الأَسَاطيلِ ..؟؟

وأستريحُ عليهَـا بعدمَـا جنحَـتْ سَفِينَـةُ الْعُمْـر في بحـرِ الأقَاويـلِ [43]

الشَّاعرُ أثناءَ بَحثِه عن الاسْتِقرارِ يتخفَّى ورَاءَ مُسَاءلةِ البَحْرِ، وهيَ مُساءَلةٌ تعكسُ تيهَهُ وضياعَهُ، وتُصوِّر مشقَّة رحْلتِهِ.

2.2 الشَّتَاتُ خَلْقٌ جَدِيد:

لقدْ عَاشَتْ "أنَا" **"ابن الشَّاطئ"** الشَّاعرةِ تجربَةً طويلةً في المنفَى، عَكَسَتْها قَصائِدهُ الَّتي اختارَ لهَا معجَمًا ينضبُ بالشَّوقِ والْحنينِ والرَّفْضِ والثَّورةِ، فـ **"شتَّات"** لَمْ يَسْتَسلِم لشَتاتِه بلْ خلقَ منهُ ثورةً عِمْلاقةً وَحَياةً مُستمِرَّةً.

وديوانهُ **"أبجديّةُ المنفَى والبندقيَّة"** حافِلٌ بالحيَاةِ وبالأمَلِ رغْمَ الْوَجعِ؛ إذ اسْتَطاعَ بِعبقريَّتِهِ الشِّعريَّةِ أنْ يرسمَ وطنًا كمَا يراهُ ويحبُّهُ، وانتماءً لا تقْطعُهُ الْحُدودُ والمسَافَات، ولَا تضعفه المنَافي.

الشَّتَاتُ الَّذِي التَصَقَ بـ**"ابن الشَّاطئ"** بدْءًا مِن اسْمِه ورَافَقهُ في مَطَارات السَّفَر، وحطَّ الرَّحالَ معَه في أرْضِ الجَزائِر، جَعَلهُ شَاعرًا خَلاّقًا، جدّدَ الأمَلَ في انْبثَاقِ الحَاضِرِ وكَسْر حَواجِزِ المنَافِي، والْعَودَة إلَى وَطَنِ القَلْبِ فِلسْطين، ومنهُ الخَلَاصُ مِن التَّيْهِ.

"ابنُ الشَّاطئ" في هذَا الدِّيوَان «يرفضُ الاسْتسْلام كحَالِ الْجَماهيرِ والأطْفَالِ في الأَرْضِ المحتلَّةِ، ويَأبَى التَّدْجينَ والتَّرويضَ ... إنّهُ فَارسٌ يرفعُ عَقيرتَهُ وَسَطَ جَماهير الفُرْسَان الَّذِين لمْ يتَخَرَّجُوا من الأَكادِيميَّات التَّقليديَّةِ، ولمْ يَحْملُوا السِّلاحَ الحَدِيثَ... لَكِنَّهمْ حَملُوا الإيمَان بالأرضِ»[44]، تلْكَ الأرضُ المغْتَصبةُ الَّتِي تَشتَّتَ أبنَاؤهَا، وَرَحَلُوا مُثْقلِين بِجِراحِهِمْ وبهمِّ قَضِيَّتِهِمْ.

يتجلَّى لنَا خَلْقُ **"ابن الشَّاطئ"** في هَذَا الدِّيوانِ مُفْعمًا بالحَياةِ والتَّفَاؤلِ والأمَلِ في الْعَودَةِ بِقَولِهِ:

لا تخَافي منْهم فأنتِ حضـــورٌ أمويٌّ .. يحتلُّ عمْـــقَ الرّغَـــامِ

يبعثُ الفجر قَامةً وضيـــــاءً ويُصفِّـــي منـابِـــــــرَ الأزْلَامِ [45]

والملاحظُ أنَّ حُروفَ "**ابن الشَّاطئ**" مُفعمَةٌ بالْحيَاة، حتَّى يَكاد القَارئُ ينْصرفُ عنِ المنْفَى الَّذِي صيَّر فيهِ قَيدَهُ وَسَوادَهُ حياةً تُعزّزهَا الطَّبيعَةُ المتنَفَّسُ، فَيزهِر فيهِ الأَمَلُ وتُسْمِعُهُ الْبلَابلُ غناءَهَا.

وفي قَصِيدَتِه "**الْوَجْهُ الآخَرُ .. في ... المِرآةِ ...!؟**" يَسْتَشْرفُ زمنًا جَديدًا وَ يَعدُ بالانْتِصَارِ، لَا تَمْنَعُهُ المسَافةُ ولَا حَوَاجِزُ النَّفْيِ:

يــا أمَّ أوفَى .. رمّـــــــــدِي لغَـــةَ التّراجُـــــعِ والإسَـــــارِ

واسْتَشْـــرفِي زمنِـي الجَدِيـد هنـــاكَ في مُقَـلِ الصّغَـــــارِ

جَسَدِي مَمرّ الكبريـــا .....ءِ إلَى خُلُـودكِ وانْتِصَـــــــارِي .. !! [46]

وحِينَ لَا يُبَالِي بِالْحِصَارِ فِي "**مُعلَّقَة .. الحَجَرِ الضَّوْء**" ويؤكِّد انْتِمَاءَهُ، يُخْرجُ لنَا منْ عُمْقِ المنْفَى ثَوْرةَ حَياةٍ، وأملًا إنْسَانيًّا لَا يَنْقَطع:

وأنَا في الهَجِيرِ أَلْتَحفُ الشَّمسَ .. وأمشِي عَلَى ضُلُوعِ مُصَابِـــي

لَا أبَالِي رغْمَ الحِصَارِ.. وحَسْبِي أنْ أنَاجِيك واثقًا بانْتسَابِـــي .. ![47]

فَتَنْفتحُ الأَبْوابُ المُوصَدةُ، وَتَسْقُطُ عَنِ اللُّغَةِ الْقُيُودُ، ويتُحرَّرُ "**ابنُ الشَّاطئ**" إنسَانًا وشَاعرًا مُنَاضِلًا لَا يَمُوتُ فِي شَتَاتِهِ.

ثُمَّ يَخْتَتِمُ قَصِيدَتَـهُ " **أنتَ... الأرضُ والْبشَـرُ...** ؟! " يَغْمرهُ اليَقِينُ والتَّفَاؤُلُ بالنَّصْرِ القَادِمِ:

إنّـي وحُبّكِ شفَّنِـــي وطَـنٌ فِـي ظلِّهِ يتفيّـأَ الْقَمَـــــرُ

خفّ القطين إليْـه يَـا امْرأتِي أَتُشْرقينَ مَعِي ..؟.. سننتصِرَ .. [48]

وهَا هِي "**أمّ أوْفى**" تُجِيبُهُ وَتغْمُرهُ تَفاؤُلًا وَسِعَةً:

أنَا فوْقَ النّخيلِ أطلعُ شَمْسًا وزَمَانِي الآتِي رَحِيبٌ .. رحيبْ[49]

وفي قَولِهِ:

أنَا لمْ أزلْ في كلّ ثَـا ..... نيَّةٍ .. أعبّرُ عنْ وُجُـــــودِي

لَا أسْتكِينُ .. ولَا أليـ .....ـنُ .. ولا أخَافُ منَ البِهـــودِ[50]

يُؤَكِّدُ **"ابن الشَّاطئ"** وُجُودَهُ، وأنَّه لَمْ يتبدَّدْ في الشَّتاتِ، وسَيظلُّ يَعَبِّرُ ويَصرخُ ويُحَاولُ الْحيَاةَ داخِلَ القَصِيدَةِ وخَارجَهَا، فَمَن امْتلكَ وَسيلةً للتَّعبيرِ أَجَادَ لَا محَالةَ البَقاءَ، فمَا بالكَ بمَنْ أجادَ الشِّعْرَ، وقَدْ قِيلَ "لَولَا الشِّعْرُ لَمَاتَ المنْفِيُّونَ".

وَنَرَى بِلَادَهُ تَتَهَاطَلُ مَطَرًا وَحَيَاةً فِي قَصِيدَتِهِ: **"تَهَاطَلِي مَطرًا ...؟"**

يَا أمَّ أوفَى .. يَا هوايَ الصَّعْب .. يَا شَرَفِي ودِيني

مَازلتِ بَارقةَ الضُّحَى وحِجَارتِي نَفسُ الكَمِيــن

فتَهاطَلِي مَطــرًا هلَا ..... ليًّا عَلى تِلكَ الغُصُــونِ ..؟؟ (51)

لقَدْ نَجحَ "ابن الشَّاطئ" شَاعرًا إنْسَانًا، وَمُنَاضِلًا عَاشِقًا، وَمُبْدعًا أَدْرَكَ مَعْنَى البَقَاءِ، ورَاحَ يُحَاولُ الْحَياةَ مِن عُمْقِ المنْفَى تُثْقِلُهُ التَّجربَةُ والقَضِيَّةُ.

خَاتمة:

ممَّا سَبَقَ عَرْضُهُ نخلُصُ إلَى أنَّ تجْربةَ **"ابن الشَّاطئ"** تجربةٌ مميّزَةٌ، سَطَرهَا بمَا جَادَتْ قَريحَتُه علَى مَدارِ سَنَواتٍ، عَاشَهَا رحَّالةً بينَ بِلادِ العُرُوبةِ لَا يَحْملُ غَيْرَ الْقَلَمِ وَالمَوْهِبَةِ وأَوْجاَعِ النَّفيِ وهمِّ القَضيَّةِ.

وديوانُهُ **"أبجديَّةُ المنْفَى والبُنْدقيَّةِ"**، ديوانٌ ثريٌّ يَعْكسُ عُمْقَ التَّجربةِ وفَرادَتَهَا، فِيه زَاوجَ **"ابن الشَّاطئ"** بيْنَ المنْفَى رمْز الشَّتَاتِ والتِّيهِ والبندقيّةِ رمْز الثَّورةِ والنِّضَالِ.

لَقَدْ بَحثنَا عنِ الوَطنِ في هذَا الدِّيوانِ وحاولنَا الْقبضَ علَيْهِ بيْنَ قَصَائِدِهِ، صَريحًا ومُكَنّى، واقعًا ومتخيَّلًا، فَكانَ وطَنُ **"إسماعيل إبراهيم شتَّات"** بينَ المنْفَى والبُندقيَّةِ كمَا رآهُ :

- ذلكَ الوطنُ المناضِلُ الرّافضُ الثّائرُ، الّذي لَا يُفَارقُ المكانَ، والمكانُ الّذي حَمَلهُ **"ابن الشّاطئ"** أينمَا حلَّ وارتحلَ، وقرَنَهُ بمُدنِ فلسْطين المغْتَصَبة، وبذكريَات الطُّفولَةِ، فكان الوطن " الجسير" و" الجليل" و"عكّا" و"القدس" و "جنين".

- الوطنُ أمّ أوفى / الوَطَن الأنثى، هُو وطنٌ نَسَجهُ "ابن الشَّاطئ" في مُتخيَّلِهِ الشِّعريّ، وصبّهُ في "أمّ أوفى" الرّمز المسْتعَار من التُّراث الشِّعريّ القَدِيمِ، إنَّهُ وطنٌ وفيٌّ صبورٌ محبٌّ إنسانيٌّ لا يَخونُ ولا ينسَى، وطنٌ في امرأةٍ تَخْتزِلُ قيَمَ الإنسانيَّةِ، وتُعيدُ صياغَةَ الواقعِ في صُورٍ خلاَّقَةٍ منَحَتْ

تجربةَ "**ابن الشَّاطئ**" خُصوصيَّةً و فرادةً، فأمُّ أوْفى الَّتي لا تكادُ تغيبُ عنْ قَصِيدةٍ من قصَائدِ هذا الدِّيوانِ، أصْبحَتْ رمزًا اسْتَحْضرهُ الشَّاعرُ مِن عُمْقِ الماضِي، رمزًا أصيلًا اسْتَوعبَ تجْربَتَهُ وأنَارهَا.

- الْوطَنُ الكَبيرُ، وطنُ "**ابن الشَّاطئ**" الممْتدّ مِنَ المحِيطِ إلَى الْخَلِيجِ، وطنُ العُروبَةِ الَّذِي حَضَر بقُوَّةٍ في دِيوان "**أبجديَّة المنفَى والبندقيَّة**"، عَاتَبهُ الشَّاعرُ حينًا ومجَّدَهُ حينًا آخرَ، وطنٌ مُنْطَلَقُهُ "**الجسير**" الفِلسطينِيَّة وخِتَامهُ "**جيجل**" الجزائريَّة ومَا بينهُمَا منْ مُدُنٍ عَربيَّةٍ عَبرَها "**ابنُ الشَّاطئ**".

-إنّه الشَّاعر الرحّالةُ الَّذي حمَلَ الوطَنَ الصَّغيرَ في قلْبِهِ، وتمدَّدَ في سِعةِ البِلَادِ العربيَّةِ، لا تحدُّه الحُدودُ ولَا تحْبسُهُ المنافي، جعلَ الوطنَ كبيرًا وكسَر بذلكَ سَطْوةَ المحتلِّ وشَبَابيك التَّفْتيشِ، وصَدَحَ بهِ صَوتُهُ في هذَا الدِّيوانِ مُناديًا: مِصْر والعِراق والأُرْدن والشَّام وفلَسطين ومُنبعثًا مِنْ جَزَائرِ الثُّوارِ.

- لَقَدْ تجلَّى الوَطَنُ كَمَا رآهُ "**ابن الشَّاطئ**" وأحبَّهُ في هذَا الدّيوَانِ، وكذَلك تجلَّتْ صُورَةُ الشَّتَات الَّذِي عَاشَهُ والتَّيْه الّذِي صَاحَبَ مَسِيرتَهُ، فالشَّاعرُ الرحَّالةُ الّذِي أُجْبر عَلى تَرْكِ وَطَنِه لَمْ يَعْزلْ ذَاتَه عن إبدَاعِهِ، بَلْ كَانَ يَنطَلقُ دائمًا مِن تَجْربتِه، يصَوِّرهَا، ويشَاركُ قُرَّاءَهُ منْ خِلالهَا هُمُومَه وأوجَاعَهُ.

- كَمَا كانَ للشَّتاتِ محلٌّ من ديوانهِ " **أبجديَّة المنفَى والبندقيَّة** "، ومن دواوينِه كلّهَا، وحتَّى من اسْمِه، ذلكَ الشَّتاتُ الَّذي أخْرجَه في هَذَا الدّيوانِ وعبَرَ منْ خلَالِ قَناتهِ إلَى رؤْيةٍ جَدِيدةٍ صَاغَهَا علَى النَّحْوِ الّذي أَرَادَهُ.

- لقَدْ برزَ الشَّتَات في هَذا الدِّيوانِ شَوْقًا وحَنِينًا وغُربَةً وتيْهًا تجلَّى مِن خِلَالِ اسْتَرْجَاعِ ذِكْريات الماضِي فِي والوَطنِ فلسطين، و زَادتْ حدَّتُه في تَصَاعُدِ الموْقِف الشِّعْريّ لـ "ابن الشّاطئ" الّذِي تَرْجَمتْهُ كَثرةُ الأسْئلة وسَطوةُ الآهِ العَميقَة وفَراغات النَّقاطِ، تلكَ الفَواصِلُ المنْبعثَةُ من عذَابِ الرُّوحِ، فالوَطنُ يَسْكنُهُ في كلِّ مكَانٍ حلَّ بِه، والشَّوْقُ يَسْتحوذُ عليْهِ ويطْبَعُ تَجْربتَهُ.

- لَقد قدرَ "**ابن الشَّاطئ**" بِما امتلَكَ من موهبَةٍ وتجربةٍ عميقةٍ أنْ يُصيّرِ الشَّتاتَ ثَورَةَ رفْضٍ و نضَالٍ، ويثْبتَ مرّةً أُخرَى أنَّ الأوطَانَ لا تمُوتُ في وجدانِ المخْلِصينَ مِن أبْنائهَا، وأنَّ الشِّعرَ بإمكَانِه أنْ يَخلقَ حَياةً جَديدَةً يتصوّرُهَا الشّاعرُ ويَعِيشُهَا.

- تِلْكَ المنَافِي الَّتِي تَمزَّق "**ابن الشَّاطئ**" عَلى أَسْوارهَا، ووشَّحَ بهَا ديوَانَه " **أبجديَّة المنفَى والبُنْدقيّة** "، لمْ تنلْ منْهُ إنْسَانًا وشَاعرًا خلاَّقًا، ولَمْ تَنْتصِرْ علَيه ثائرًا ومُنَاضِلًا، وإنَّمَا طعَّمتْهُ بمادَّةٍ رُوحيَّةٍ شكَّلَ منهَا تجْربةٌ إبداعيَّةً مُتفرِّدَةً لَمْ يُنْصِفْهَا النَّقْدُ الحَدِيثُ.

الإحَالات والهَوامش:

---

(1)أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، 1979م، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مادة وطن.

(2)أبو الفتح ناصر الدين المطرّزي،1979م، المغرب في ترتيب المعرب، تح محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، سورية، ط1، ص 361.

(3)الدالي محمد بن موسى بن مصطفى، 2013م، الوطن والاستيطان (دراسة فقهية)، المجلد الأول، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، ط1، ص32 .

(4)ابن الشاطئ، 2004، أبجدية المنفى والبندقية، رابطة الإبداع الثقافية، ط1، المقدمة.

(5) إبراهيم نمر موسى، 2009، تجليات الوطن والثورة في شعر كمال ناصر، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلسطين، المجلد 36، العدد 1، ص29 .

(6)أبجدية المنفى والبندقية، ص41.

(7) المصدر نفسه، ص 39.

(8) خرفي محمد الصالح، 2005/ 2006، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، (أطروحة دكتوراه علوم)، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص 29.

(9) أبجدية المنفى والبندقية ، ص 58.

(10)المصدر نفسه، ص 177.

(11)المصدر نفسه، ص 83.

(12)المصدر نفسه، 89 .

(13)المصدر نفسه، ص (168-169).

(14)المصدر نفسه، ص56.

(15)المصدر نفسه، المقدمة.

(16)المصدر نفسه، ص31.

(17)المصدر نفسه، ص43 .

(18)المصدر نفسه، ص53.

(19)المصدر نفسه، ص44 .

(20)المصدر نفسه، ص60.

(21)المصدر نفسه، ص65.

[22]محمد فتحي أبو مراد، 2004م، الرمز الفني في شعر محمود درويش، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ص 14.

[23]أبجدية المنفى والبندقية، ص23.

[24]المصدر نفسه، ص 25.

[25]المصدر نفسه، ص35 .

[26]المصدر نفسه، ص73 .

[27]المصدر نفسه، ص299.

[28] خرفي محمد الصالح، جماليات المكان في الشّعر الجزائري، ص25.

[29]تجليات الوطن والثورة في شعر كمال ناصر، إبراهيم نمر موسى، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد36، ع1، 2009، ص 29.

[30]أبجدية المنفى والبندقية، ص25.

[31]المصدر نفسه، ص31.

[32]المصدر نفسه، ص37.

[33]المصدر نفسه، ص45 .

[34]المصدر نفسه، ص(49- 50).

[35]المصدر نفسه،ص51.

[36]المصدر نفسه، ص53.

[37]المصدر نفسه، ص61.

[38]المصدر نفسه،ص64 .

[39]المصدر نفسه، ص65.

[40]المصدر نفسه، ص82 .

[41]المصدر نفسه،ص83 .

[42]المصدر نفسه، ص102.

[43] المصدر نفسه، ص107.

[44] المصدر نفسه، المقدمة.

[45]المصدر نفسه، ص22.

[46]المصدر نفسه، ص33.

[47] المصدر نفسه، ص38 .

[48]المصدر نفسه،ص63.

[49] المصدر نفسه،ص87.

[50]المصدر نفسه، ص96 .

[51]المصدر نفسه، ص106.